أصل تفسير القرآن بالقرآن:
مفهومه وضوابطه

إعداد

د. سعيد بن أحمد بوعصاب

كلية العلوم الشرعية بجامعة القرويين . السمارة

المغرب

المؤتمر العالمي الثالث للباحثين في القرآن الكريم وعلومه

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

لقد أنزل الله تعالى هذا القرآن الكتاب الكريم، هاديا ومرشدا للناس، وضمن لهم من خلاله سعادة الدنيا والآخرة، وبث فيه من الأحكام والوصايا والمعاني والحقائق ما يعد منهجا للحياة كلها من ألفها إلى يائها، ومن مبتدئها إلى منتهاها، وما يأتي بعدها من حياة لا نهاية لها، وكتاب هذا شأنه وتلك هي منزلته، لا غرو أن الله تعالى سيتكفل ببيانه وإيضاح معانيه وأحكامه، ليكون الحجة والمحجة، قال الله تعالى(وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلآيَـٰتِ وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) { الأنعام 109} وقال تعالى (قَدْ فَصَّلْنَا ٱلآيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ){الأنعام 127} وقال تعالى (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ) {القيامة 18}وقال تعالى (كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ) {البقرة 189}وقال تعالى (وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ) { البقرة 221 } فهذه النصوص القرآنية الكريمة تقرر أن الله تعالى أنزل هذا الكتاب في ذاته بيِّنا واضحا، والمعلم الأول الدال على بيان القرآن ووضوحه أنه نزل بلسان القوم الذين بعث فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أن المتلقين لهذا الكتاب تختلف مستوياتهم ودرجاتهم في فهمه ومعرفة مقصوده، وكلما ابتعد المخاطبون به عن لسانه كلما اشتدت الحاجة إلى وسائل تعين على فهمه، ومناهج تهدي إلى إدراك أسراره، وترشد إلى الغرض من خطابه، وفي خضم استلهام المناهج الصحيحة الموصلة إلى هذه الغاية، تبين لذوي الألباب، ممن أطال التدبر والتفكر في معاني هذا الكتاب، أن أفضل منهج لفهم خطابه هو الدخول من باب بيانه لذاته، إذ من خصائص الكتاب أنه مبيِّنٌ،ومبيَّن، بالكسر والفتح، إلا أن عد الكتاب منهجا للبيان أمر يحتاج إلى شرح ودرس وتوضيح وتدقيق من جهتين: جهة تأصيلية نظرية تقعيدية، ثم جهة عملية تطبيقية إجرائيه، ولا شك أن الجهة الثانية قد نالت العناية والحفاوة من مفسرين سابقين ولاحقين، على اختلاف فيما بينهم في القدر والنصيب، فمنهم من حاز في ذلك الحظ الأوفى، والنصيب الأكبر، حتى خص ذلك المنهج بمؤلفات، ورسم فيه مصنفات، كما سيأتي بيان ذلك وتوضيحه، إلا أن الجهة الأولى ما تزال بحاجة إلى تسليط مزيد من البحث والتأسيس والتنظير، حتى يكون المقدم على هذا المنهج على بينة من أمره، ولتحقيق هذه الغاية يأتي هذا البحث ليساهم ـ ولو بشكل جزئي ـ

في رسم معالم هذا المنهج ضمن أعمال أخرى تخدم مجال " أصول التفسير " الذي هو محور هذا اللقاء المبارك، وقد سلكت فيه على النحو الآتي: تمهيد في بيان مصطلح " تفسير القرآن بالقرآن " ثم :

المبحث الأول: وكان في بيان أهمية تفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الثاني: وقد تناولت من خلاله: أبرز معالم منهج تفسير القرآن بالقرآن.

المبحث الثالث: وكان التركيز فيه على أهم الضوابط التي يجب مراعاتها في عملية " تفسير القرآن بالقرآن "

.ثم ختمت البحث بخاتمة عرضت من خلالها نتيجة ما توصل إليه البحث، مع التوصيات المقترحة، وأسال الله تعالى التوفيق والسداد.

1 ـ تمهيد في بيان مصطلح " تفسير القرآن بالقرآن ".

لنا في معرفة المراد من هذا العنوان طريقان:

الطريق الأول: أن ينص المشتغلون بالتفسير وعلوم القرآن على تعريف هذا المصطلح، فيكون التعريف جاريا بينهم على وجه من الاتفاق والاتحاد، قد يقرب قليلا أو يبتعد قليلا، وحينئذ يسهل الوصول إلى المراد، إذ يتوقف الأمر على عرض ما قيل من قبل مع مقارنة التعريفات بعضها ببعض ثم اختيار أدلها على المطلوب وأقربها إلى المرغوب.

الطريق الثاني: أن يفهم التعريف من خلال صنيعهم في مصنفاتهم ومؤلفاتهم حتى يعرف ما يدخل تحت هذا المصطلح وما لا يدخل.

ولدى تتبعنا لمصادر التفسير وعلوم القرآن فإننا لا نكاد نعثر على تعريف خاص ـ وخصوصا للمتقدمين ـ على شيء اسمه " تفسير القرآن بالقرآن "، هذا مع تنبيههم على أهمية هذا المسلك في التفسير، واعتبارهم له أفضل المناهج في بيان كتاب الله تعالى، وهذا يدعونا إلى تتبع عملهم في هذا الباب، ومن خلاله نتوصل إلى المعنى المراد من وراء هذا العنوان، وبما أنه متفرع عن أصل عام وهو التفسير فإنه يلزم أن نعرف المراد بالتفسير أولا، ثم نعرفه مقرونا بالقرآن.

أما التفسير فقد تعددت عباراتهم في بيان معناه، فقد عرفه كل من ابن جزي الكلبي الغرناطي، وأبو حيان الأندلسي، وبدر الدين الزركشي، ومن المتأخرين عبد العظيم الزرقاني وغيرهم، غير أن الناظر في تلك التعاريف يلحظ أنها تجمع على ركن " البيان والإيضاح "، مما يتفق مع المعنى اللغوي للكلمة، كما قال ابن فارس:" الفاء والسين والراء كلمة واحدة تدل على بيان شيء وإيضاحه"[1] .

1 . معجم مقاييس اللغة لابن فارس 4 / 504 .

وهذا هو الذي خلص إليه الدكتور محمد حسين الذهبي بعد استعراضه لجملة من التعاريف أوردها في تفسير القرآن فقال: "وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البَشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد[1]".

فقوله رحمه الله :" فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى وبيان المراد "، كلام عام يشمل جميع المناهج المعتبرة المسلوكة لتحقيق هذه الغاية، وفي حالتنا هذه نقول بناء على هذا الأصل: إن تفسير القرآن بالقرآن معناه: هو بيان المعنى القرآني من خلال القرآن ذاته، سواء كان البيان للفظة، أو لمعنى الآية، أو كان البيان للموضوع القرآني.

ولكن ينبغي أن نعلم: أن البيان درجات وأنواع، فهو يختلف قوة وضعفا، وقربا وبعدا، وظهورا وخفاء، ومطابقة ومقاربة، كما أن أنواعه مختلفة كذلك، فالمقصود أن المراد بتفسير القرآن هو مطلق بيان القرآن، من غير أن يكون ذلك محصورا في مجال المفردات أو الكلمات، بل يتعدى ذلك إلى كل ما يخدم المعنى ويكشف المراد، وهذا هو الذي يدل عليه منهج السالكين لهذا الطريق من المفسرين السابقين واللاحقين.

ولذا فإنني لا أرى وجها لما ذكره الدكتور مساعد الطيار حفظه الله من إخراج بعض صور تفسير القرآن بالقرآن لكونها لا ينطبق عليها " مفهوم تفسير القرآن بالقرآن،" وذلك مثل: "الجمع بين ما يوهم أنه مختلف"، وكذا "ذكر ما يدخل في بعض المعاني المشتركة للآية المفسرة"، وذلك كذكر أنواع الحكم في خلق النجوم [2]، بل الذي أراه ـ والله أعلم ـ أن هذا داخل في التفسير الموضوعي، ذلك أن المفسر إذا أراد أن يتحدث عن مقاصد خلق النجوم في القرآن، فالطريق إلى ذلك أن يجمع الآيات الواردة في الموضوع، وإلا عد تفسيره ناقصا غير كامل، وكذا لو أراد الباحث في معاني القرآن الحديث عن " مراحل خلق آدم عليه السلام " فلا سبيل له لذكر المعنى كاملا إلا بجمع النصوص الواردة في الموضوع كله، وذلك أنا في هذا التفسير لا نزعم البيان للفظة القرآنية فحسب، بل نقصد بذلك مطلق البيان سواء كان بيان لفظة، أو جملة، أو معنى آية، أو بيان موضوع، إذ الغرض والقصد في النهاية هو بيان المعنى وكشف المراد، وهذا هو المعهود من صنيع المفسرين في مناهج بيانهم للقرآن متقدمين ومتأخرين.

1 . التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبي 1 / 14

2 . ينظر كتابه " مقالات في علوم القرآن " للدكتور مساعد بن سليمان الطيار ص 129 / 130

2 . المبحث الأول: أهمية تفسير القرآن بالقرآن.

تفسير القرآن بالقرآن يحتل الصدارة في مناهج التفسير، ويحظى بالرتبة الأولى فيها، وذلك لوجوه:

1 . تقديم بيان الله على بيان من سواه، وذلك لأن الله تعالى قد أخبر في القرآن الكريم أنه هو من يتولى بيانه، قال تعالى (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ)}القيامة17/ 18{ قال ابن جزي: أي علينا أن نبينه لك ونجعلك تحفظه، وقيل: علينا أن نبين معانيه وأحكامه [1].

وقال الألوسي: أي بيان ما أشكل عليك من معانيه وأحكامه [2]. فالبيان من الله تعالى قد وقع للألفاظ كما وقع للمعاني، وبيان الله تعالى طريقه الوحي خاصة، فإما أن يكون من خلال القرآن ذاته، وذلك بما أودع في الكتاب من مناهج البيان، وإما أن يكون عن طريق سنة رسوله، وعليه يكون المصدر الأول للبيان هو القرآن، أو البيان بالقرآن، وذلك لأن أولى ما يبين به كلام الله هو كلام الله ذاته، فلا أحد أعلم من مراد الله من الله تعالى. سئل أحمد بن يحي مؤلف الفصيح عن " الهلوع " فقال: قد فسره الله فلا تفسير أبين من تفسيره (إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً)[3]}المعارج20/ 21{ ومن أجل ذلك عد كثير من العلماء هذا المنهج أحسن طريقة في التفسير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإن قال قائل: فما أحسن طرق التفسير ؟

فالجواب: إن أصح الطرق في ذلك أن يُفَسَّر القرآن بالقرآن، فما أُجْمِل في مكان فإنه قد فُسِّر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر[4].

وقال ابن قيم الجوزية رحمه الله: وتفسير القرآن بالقرآن من أبلغ التفاسير[5]، وقد أكد على هذا المعنى الإمام أبو الفداء إسماعيل بن كثير في مقدمة تفسيره [6].

واعتبر صاحب "أضواء البيان " هذا المنهج أشرف المناهج في تفسير القرآن، ونقل إجماع العلماء على ذلك فقال رحمه الله مبينا سبب اختياره له: لإجماع العلماء على أن أشرف أنواع التفسير وأجلها تفسير كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحد أعلم بمعنى كلام الله جل وعلا من الله جل وعلا [1].

---

1 . التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي 2 / 515

2 . روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين الألوسي 29/ 142

3 . انظر: الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري 4/ 614

4 . مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 93

5 . التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية ص 185

6 . تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير 1 / 7

2 . إن هذا المنهج سلكه النبي عليه الصلاة والسلام في التفسير، وكذا السلف الصالح من الصحابة والتابعين، ومن بعهدهم من الأئمة الراشدين.

فقد نص الأئمة السابقون على أن النبي صلى الله عليه وسلم . وهو المفسر الأول للقرآن ـ إنما كان تفسيره للقرآن بالقرآن، وذلك إما من خلال إيراد النص المفسِّر نفسه، وإما من خلال إيراد معناه ،فيكون تفسيره من باب ما فهمه من القرآن، قال الإمام محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله: كل ما حكم به رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو مما فهمه من القرآن[2].

وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يرشد الصحابة الكرام إلى تبني هذا المنهج في التفسير عمليا وتطبيقيا، فمثال ما صرح فيه بالنص المفسِّر، ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه لما نزل قوله تعالى (أَلذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ اوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلاَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ) {الأنعام 83} شق ذلك على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال: ليس الظلم بالذي تعنون، إنما الظلم الشرك، أوما قرأتم قول العبد الصالح (يَـٰبُنَيَّ لاَ تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ) {لقمان 12}[3].

وروى ابن مسعود أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مفاتح الغيب خمس(إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلاَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) { لقمان 33}[4] ومثال الثاني: تفسيره صلى الله عليه وسلم " للمغضوب عليهم " بأنهم هم اليهود، وللضالين " بأنهم هم النصارى [5]، فقد دل على ذلك قوله تعالى عن اليهود (وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ) {آل عمران 112} وعن النصارى قوله تعالى (وَلاَ تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَد ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ) {المائدة79}.

---

1 . أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن المختار الشنقيطي 1 / 3

2 . تفسير القرآن العظيم لابن كثير 1 / 7

3 . صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب " ولم يلبسوا إيمانهم بظلم " 5 / 193

4 . صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب " وعنده مفاتح الغيب " 5 / 193

5 . سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة فاتحة الكتاب 5 / 204

كما أن الصحابة الكرام سلكوا هذا المنهج في التفسير، وأرشدوا إلى تبنيه، فعن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنه في قوله تعالى (ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰباً مُّتَشَٰبِهاً مَّثَانِيَ) {الزمر22} قال: كتاب الله مثاني، ثنى فيه الأمر مرارا.[1]

وقد كان ابن عباس من أكثر الصحابة طروقا لهذا المنهج، وأورد ابن جرير الطبري في تفسيره أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال للناس: ما تقولون في تفسير هذه الآية (وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ) {التكوير 7}؟ فسكتوا، قال: ولكن هو الرجل يزوج نظيره من أهل الجنة، والرجل يزوج نظيره من أهل النار، ثم قرأ (ٱحْشُرُواْ ٱلذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزْوَٰجَهُمْ وَمَا كَانُواْ يَعْبُدُونَ) {الصافات22}.[2]

وعن الحسن بن علي رضي الله عنه أنه سئل عن قوله تعالى (وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ) { البروج 3}فقال: الشاهد محمد، ثم قرأ (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَآءِ شَهِيداً) {النساء 41 }والمشهود يوم القيامة، ثم قرأ (ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ)[3] { هود 103 }

كما تأسى التابعون بالصحابة الكرام في هذا المنهج السديد، وسلكوا مسلكهم، فهم من مدرستهم تخرجوا، ومن علمهم نهلوا، فعن سعيد بن جبير رضي الله عنه في قوله تعالى (مُّتَشَٰبِهاً) قال: يشبه بعضه بعضا، ويصدّق بعضه بعضا، ويدلّ بعضه على بعض.[4]

ومن أشهر التابعين الذين نقل عنهم سلوك هذا المنهج، عبد الرحمان بن زيد بن أسلم[5]،وقتادة، وعكرمة، والضحاك، والربيع بن أنس، ومحمد بن إسحاق، والسدي، وأبو العالية، وعبد الملك بن جريج، ومحمد بن كعب القرظي، وغيرهم.

---

1 . جامع البيان 21 / 279

2 . المصدر نفسه . 24 / 244

3 . المصدر نفسه 24 / 335

4 . نفسه 279/21

5 . وقد نقل ابن جرير الطبري عنه في مواطن عدة من تفسيره، ويعد هذا التفسير من أوسع المصادر المتقدمة التي عنيت بهذا المنهج .

كما أن هذا المنهج كان صنيع أئمة لاحقين جاءوا بعد التابعين منهم: الإمام محمد بن جرير الطبري ت 310هـ واهتمامه بهذا النوع من التفسير يتجلى عنده في مسلكين:

المسلك الأول: ما ينقله من آثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة والتابعين فُسِّر من خلالها القرآن بالقرآن، فليس له فيها إلا الانتقاء والنقل.

المسلك الثاني: أن يقوم هو نفسه بهذا الإجراء، بأن يحمل معنى آية على أخرى، والأمثلة على هذين الضربين في كتابه متوافرة، وقد سقت بعضا منها فيما مضى، وسوف أذكر أخرى فيما بقي.

والحافظ ابن كثير الدمشقي ت 774 هـ في كتابه " تفسير القرآن العظيم " وصنيعه لا يختلف عن الإمام ابن جرير، وقد صرح في مقدمة تفسيره بأهمية هذا المنهج.

والخلاصة: أن أغلب المفسرين اعتنوا بهذا المنهج السديد حتى لا يكاد يخلو مصدر من مصادر التفسير من العناية به من وجه ما، وهم في ذلك ما بين مقل ومكثر، وهناك من المفسرين من خصه بالتأليف والذكر منهم: الأمير الصنعاني ت 1182هـ في كتابه " مفاتح الرضوان في تفسير الذكر بالآثار والقرآن " والشيخ محمد الأمين الشنقيطي ت 1393 هـ في تفسيره " أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن " والدكتور عبد الكريم الخطيب في "التفسير القرآني للقرآن" [1] .

3. الاعتماد على بيان القرآن في الترجيح بين الأقوال المختلفة في التفسير .

فإن المطالع لمصادر التفسير يقف في الآية الواحدة على أقوال مختلفة ومتعددة، صدرت إما من السلف أو من هم دونهم من المفسرين، وقد سلك العلماء مسالك متعددة لتضييق هوة الخلاف والترجيح بين تلك الأقوال، وقد وضعوا لذلك قوانين لغوية وسياقية ونقليه يتم من خلالها النظر في تلك الأقوال والآثار، وترجيح بعضها على بعض، وقد نصوا على أن القول الذي يشهد له نص آخر من القرآن هو أولى بالقبول والترجيح على ما سواه[2] .

---

1 . ذكر الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في كتابه "التفسير والمفسرون ": أن أحد المعاصرين ألف كتابا سماه " الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن " وأن هذا التفسير أحدث ضجة بين علماء الأزهر، ثم أُلِّفت لجنة من بعض العلماء لتنظر فى هذا الكتاب، ثم لتحكم عليه بما ترى فيه، ثم رفعت اللّجنة تقريرها لشيخ الأزهر إذ ذاك، وفيه تفنيد لآراء الرجل وحكم عليه بأنه "أفَّاك خرَّاص، اشتهى أن يُعرف فلم ير وسيلة أهون عليه وأوفى بغرضه من الإلحاد فى الدين، بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث فى شأنه وترديد سيرته". ثم صودر الكتاب واختفى عن أعين الناس .التفسير والمفسرون 2/ 390: أقول: والكتاب لا يزال الحديث عنه في المواقع الإلكترونية .

2 . انظر :البحر المحيط للزركشي 6 / 175

وقال ابن جزي الكلبي الغرناطي مبينا أسباب الخلاف بين المفسرين والوجوه التي يرجح بها بين أقوالهم: وأما وجوه الترجيح فهي اثنا عشر وجها:

الأول: تفسير بعض القرآن ببعض، فإذا دل موضع من القرآن على المراد بموضع آخر حملناه عليه، ورجحنا القول بذلك على غيره من الأقوال[1]، ومن الأمثلة على ذلك في تفسيره قوله تعالى (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) {البقرة22} يقول ابن جزي وهو يفسر " من مثله ": الضمير عائد على ما أنزلنا وهو القرآن، و"من" لبيان الجنس، وقيل: يعود على النبي صلى الله عليه وسلم، فمن على هذا لابتداء الغاية، أي من بشر مثله، والأول أرجح لتعينه في يونس وهود، ومعنى "مثله" في فصاحته وفيما تضمنه من العلوم والحكم العجيبة والبراهين الواضحة [2].

فنلاحظ من خلال هذا النقل أن الترجيح بالقرآن يأتي في مقدمة وجوه الترجيحات.

4 . في تفسير القرآن بالقرآن تأكيد سعة معنى النص القرآني وبيان شموله

إذ من سمات البيان القرآني القصد في اللفظ مع الوفاء بالمعنى، فالألفاظ القليلة تحمل في طياتها معاني واسعة وكثيرة، ولذا كان في فهم معاني القرآن مجالا رحبا ومتسعا بالغا، "لأن العلوم كلها داخلة في فهم أفعال الله سبحانه وتعالى وصفاته، والقرآن يشرح صفاته وأفعاله، ففهم كلام الله لا نهاية له،كما لا نهاية لعلم من أنزله، ولذا قال العلماء: من أحاط بظاهر التفسير وهو معنى الألفاظ في اللغة، لم يكف ذلك في فهم حقائق المعاني" [3].

ومنهج تفسير القرآن بالقرآن يساعد في كشف هذا الاتساع في المعنى القرآني، وذلك لدى النظر في الكلمات القرآنية، وتطلب بيانها في ضوء آيات أخرى، وخذ مثالا على ذلك، صنيع الإمام الطبري في قوله تعالى (وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ) {الأنعام53} فهذا المفسر بين المعنى الواسع الذي تدل عليه كلمة (**يدعون**) في الآية الكريمة فقال: فالدعاء يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولا وكلاما، وقد يكون بالعمل له بالجوارح، الأعمال التي كان عليهم فرضها وغيرها من النوافل، وقد دلل على هذا المعنى الذي اختاره بقوله تعالى (وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ

1 . التسهيل لعلوم التنزيل 1/ 12ـ 13

2 . المصدر نفسه 1 / 58

3 . انظر: البرهان في علوم القرآن لبدر الدين الزركشي 2 / 155

ٱلذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ) {غافر60} فالله سبحانه وتعالى سمى العبادة في هذه الآية "دعاء "، قال الطبري: "ولا قول أولى بذلك بالصحة من وصف القوم بما وصفهم الله به من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي، فيعمون بالصفة التي وصفهم بها ربهم ولا يخصون منها بشيء دون شيء[1] .فقد كان اعتماد هذا المنهج من قبل المفسر فيه جمع للأقوال المروية في تفسير الآية، إذ بعضهم قال: المعنى هو صلاة الصبح وصلاة العصر، ومنهم من قال: الصلاة بشكل عام، ومنهم من قال: الذكر، ومنهم من قال: قراءة القرآن [2]، فكان في هذا الاختيار جمعا لما تفرق في غيره.

5 . الرد على الشبهات التي يثيرها بعض الناس ممن لم يطلع وينظر في كل الآيات الواردة في الموضوع.

وهذا موضوع من الأهمية بمكان، حيث أنك تقف على بعض الأقوال من باحثين مختلفين متقدمين ومتأخرين يقولون أقوالا في الشريعة تخالف الصواب، وتجانب الحقيقة، والسبب فيها عدم النظر في كل الآيات الواردة في الموضوع، فالاقتصار على بعض الآيات دون النظر في باقيها إنما هو تعضية للقرآن، ووقوف على بعض المعنى وترك لمعاني أخرى بها يتم الأمر، وتكتمل أركان الحقيقة، ويمكننا أن نسوق على هذه القضية أمثلة كثيرة، ولكنا سنقتصر على موضوع واحد كثر فيه الكلام قديما وحديثا وهو موضوع " الشفاعة،" فإن هناك من أنكر الشفاعة بالكلية، واستدل على ذلك بالنصوص التي تنفيها من مثل قول الله تعالى(يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَّاتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَـٰعَةٌ وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ) {البقرة252} ولقد كان للإمام ابن جزي رحمه الله منهج واضح في التعامل مع هذه الآيات، وذلك لانطلاقه في تفسير القرآن من أصل تفسير القرآن بالقرآن، يقول رحمه الله: ليس نفي الشفاعة مطلقا، فإن مذهب أهل الحق ثبوت الشفاعة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشفاعة الملائكة والأنبياء والمؤمنين، وإنما المراد أنه لا يشفع أحد إلا بعد أن يأذن الله له، لقوله تعالى (مَن ذَا ٱلذِے يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلاَّ بِإِذْنِهِۦ) {البقرة254} ولقوله (مَا مِن شَفِيعٍ اِلاَّ مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ) {يونس 3} ولقوله (وَلاَ تَنفَعُ ٱلشَّفَـٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلاَّ لِمَنْ اَذِنَ لَهُۥ) {سبأ23} وانظر ما ورد أن الرسول صلى الله

1 . جامع البيان 11/ 387

2 . انظر: المصدر نفسه / 385/ فما بعدها.

عليه وسلم يستأذن في الشفاعة فيقال له: اشفع تشفع [1]، فكل ما ورد في القرآن من نفي الشفاعة مطلقا يحمل على هذا لأن المطلق يحمل على المقيد فليس في هذه الآيات المطلقة دليل للمعتزلة في نفي الشفاعة[2]

6 . تفسير القرآن بالقرآن هو من قبيل التفسير الموضوعي[3] الذي أصبح الناس بأمس الحاجة إليه في هذا الزمان.

وذلك أن التفسير الموضوعي هو المنهج الذي يحقق لنا فوائد ثلاثة:

الفائدة الأولى: بيان معنى المصطلح الوارد في القرآن، حيث أننا بتتبعنا لموارده من خلال هذا المنهج نخرج بحقيقة واضحة، ومعنى دقيق للمصطلح القرآني كما هو مستعمل في كتاب الله تعالى.

الفائدة الثانية: أن هذا المنهج هو الذي يحقق لنا "الوحدة الموضوعية" في السورة، ذلك أننا من خلاله نؤكد نظرية أن لكل سورة شخصيتها المتميزة، وموضوعها المستقل، ومقاصدها الأساسية، هذا مع انتظامها في موضوع الكتاب جملة.

الفائدة الثالثة: الخروج بتصور قرآني مكتمل عن الموضوع الواحد في الكتاب كله، وهذا المنهج بصفة خاصة لا يتحقق إلا بتتبع موارد الآي في الكتاب، وحمل بعضها على بعض، وربط بعضها بالأخرى، حتى تكتمل الصورة، وتلتئم أطراف الموضوع، ويعرف السابق من اللاحق، والمقدم والمؤخر، فتكتمل بذلك حقيقة الموضوع كله.

3 . المبحث الثاني: منهج تفسير القرآن بالقرآن

إن من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم وجه ترتيب آياته وسوره وموضوعاته، فالقرآن في هذا الترتيب لا يراعي المنهج الموضوعي الذي جرى عليه عرف الباحثين والكاتبين والمصنفين في موضوعات العلوم المختلفة، بل له طريقته الخاصة في ذلك، حيث يوزع أجزاء الموضوع الواحد عبر سور متعددة، ولربما ألفيت معانيه تدور في سور القرآن الكريم كله، وبينها وبين ما وضعت بجنبه أواصر قربى، وصلة ومناسبة لا تدرك إلا بكثير من التدبر والتأمل، والبحث عن وجه الربط وحسن الانتظام بين تلك الحقائق والموضوعات، ولذا كان

1 . صحيح ابن حبان باب الحوض والشفاعة 377/14

2 . التسهيل 1 / 47

3 . التفسير الموضوعي هو: علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية، من خلال سورة أو أكثر، انظر كتاب "مباحث في التفسير الموضوعي" للدكتور مصطفى مسلم ص 16

لزاما على المفسر وطالب المعنى في كتاب الله تعالى أن لا يقف في تفسيره على آية واحدة، بل عليه أن يتطلب نظيراتها في كتاب الله تعالى جملة، يقول الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله: الناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب، وعلى الإجمال والتبيين،وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العموم والخصوص، وما أُوجز في مكان قد يُبسط في مكان آخر، وما أُجمل في موضع قد يُبيَّن في موضع آخر، وما جاء مطلقا في ناحية قد يلحقه التقييد في ناحية أخرى، وما كان عاما في آية قد يدخله التخصيص في آية أُخرى.

ولهذا كان لا بد لمن يعترض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضوع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهبا على معرفة ما جاء موجزا، وبما جاء مُبيَّنا على فهم ما جاء مُجملا، وليحمل المطْلَق على المقيَّد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسرَ القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره[1].

فمن خلال التأمل في هذا النص الثمين الذي أورده الدكتور الذهبي نخرج بالملمح العام الذي يؤطر "نظرية تفسير القرآن بالقرآن"، وهو لا يخرج في منهجه العام عن حالتين اثنتين:

الحالة الأولى: النظر في سياق النص نفسه، وذلك من خلال رعي النظر فيما قبله وما بعده، من نصوص قرآنية تساهم في رفع الاحتمال، وتعمل على إزالة الإشكال.

الحالة الثانية: النظر في نصوص أخرى في مواضع أخرى لها صلة من وجه ما بالنص المراد تفسيره وإيضاح بيانه ورفع ما يعتوره من إبهام عام، فتفسير القرآن بالقرآن لا يخرج في منهجه التفصيلي عن هاتين الحالتين، وهذه إشارة إلى مجمل المسالك مقرونة بأمثلتها توضح لنا الغرض من هذا الكلام.

1 . تفسير ما جاء موجزا في موضع بما جاء مبسوطا في موضع أو مواضع أخرى.

وهذا الأمر تابع لغرض القرآن في كل سورة، فقد يذكر فيها ما يناسب موضوعها وغرضها موجزا، ثم يأتي تفصيله في سور أخرى يقتضي مقصدها وموضوعها التفصيل والبيان، ولهذا الأمر صور متعددة منها

1 . التفسير والمفسرون1 / 31

. **ذكر الشيء موجزا ثم يأتي تفصيله عن طريق السؤال والجواب**، ومثاله قوله تعالى(ٱلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ) {الفاتحة1} جاء تفسيره في سورة الشعراء قال تعالى (قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ) { الشعراء 3423}

. **أن تذكر القصة مجملة، ثم يأتي تفصيلها وبيان أحداثها في سور أخرى**، وذلك أن طريقة عرض القصة القرآنية في الكتاب أن لا تذكر بتمامها وكمالها، بل يذكر منها ما يتعلق بمقصود السورة العام، ويذكر باقيها في سور أخرى بما يتناسب مع مقاصد تلك السور [1]، والعلم الأسنى في هذا الباب قصة آدم عليه السلام، وموسى مع بني إسرائيل، ثم بقية قصص الأنبياء الآخرين.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى (وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ) {البقرة65/64}: وهذه القصة مبسوطة في سورة الأعراف، حيث يقول تعالى (وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَاتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لاَ يَسْبِتُونَ لاَ تَاتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ) **{الأعراف: 163}**القصة بكمالها[2].

. **أن يذكر الشيء في موضع ويذكر سببه في موضع آخر**، ومثال ذلك قوله تعالى (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوَ اَشَدُّ قَسْوَةً) { البقرة 73} ثم بين سبب هذه القسوة في موضع آخر فقال (فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَةً) { المائدة 14}

. **أن يكون في خلق الشيء أكثر من حكمة، فيذكر بعضها في موضع وباقيها في مواضع أخرى**

ومثال ذلك: (وَهُوَ ٱلذِے جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِے ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلاَيَـٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ) { الأنعام 97}

1 . باستثناء قصة يوسف عليه السلام فقد ذكرت مجتمعة في سورة واحدة وهي سورة يوسف

2 . تفسير القرآن العظيم 1 / 288 وانظر تفسير السعدي 1/ 54

وقال في سورة تبارك مبينا حكما أخرى (وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُوماً لِّلشَّيَٰطِينِ)}الملك 5} وقال في سورة الصافات (إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ وَحِفْظاً مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ) { الصافات 6 ـ7}

2 . تفسير الإحالات القرآنية.

وذلك أنا نجد في الكتاب العزيز آيات قرآنية تحيل على آيات أخرى في الكتاب نزلت أو متوقعة النزول، وقد تتبع المفسرون تلك الآيات فقرنوها بنظيراتها التي تحيل عليها لتكون بيانا لها، وزيادة في إيضاح معناها، حيث لا يتم إلا بذكرها، ومثال ذلك قوله تعالى (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنِ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ)}النساء:140}. قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور رحمه الله: قال المفسّرون: إنّ الذي أحيل عليه هنا هو قوله تعالى في سورة الأنعام (وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلذِينَ يَخُوضُونَ فِيۤ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ) { الأنعام 68}لأنّ شأن الكافرين يَسري إلى الذين يتُخذونهم أولياء، والظاهر أنّ الذي أحال الله عليه هو ما تكرّر في القرآن من قبل نزول هذه السورة نحو قوله في البقرة (وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوۤاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ){ البقرة13} ممّا حصل من مجموعه تقرر هذا المعنى [1].

وفي سورة المائدة ورد قوله تعالى (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلأَنْعَٰمِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ){المائدة2} فقد جاء بيان هذا الاستثناء في قوله تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُواْ بِالأَزْلَٰمِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ){المائدة4} قال ابن الجوزي: قوله تعالى (إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) روي عن ابن عباس أنه قال: هي الميتة

1 . التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور 5/ 234

وسائر ما في القرآن تحريمه، وقال ابن الأنباري: المتلو علينا من المحظور الآية التي بعدها وهي قوله (حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ)[1].

وفي قوله تعالى (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ) {النحل 118} قال البغوي: يعني في سورة الأنعام، وهو قوله تعالى (وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ) {الأنعام-147} الآية [2] .

وفي قوله تعالى (سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ) {الأنعام 149} فقد أخبر في آية أخرى بأنهم قالوه، قال تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ) {النحل 35}

3 . حمل العام على الخاص.

فإن القرآن الكريم جرى في كلامه مجرى اللسان العربي، وسار فيه على منهجه، ومن ثم نجد فيه اللفظ العام الباقي على عمومه، والعام يراد به الخصوص، والعام الذي يدخله التخصيص، قال السيوطي :وأمثلته في القرآن كثيرة جدا، وهو أكثر من المنسوخ، إذ ما من عام إلا وقد خص [3].

وقال الشيخ أبو حامد الغزالي: لا نعرف خلافا بين القائلين بالعموم في جواز تخصيصه بالدليل إما بدليل العقل أو السمع[4] .

ومبحث "العموم والخصوص" من المباحث ذات المساحة الواسعة في مصادر التفسير، وهذا يؤكد ضرورة الرجوع إلى القرآن ذاته لمعرفة مخصصات الآية، فإن التخصيص نوع من التفسير والبيان لمعنى النص، إذ

1 . زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي 2 / 269

2 . معالم التنزيل للبغوي 5 / 50

3 . الإتقان في علوم القرآن 2 /46

4 . المستصفى في علم الأصول ،لأبي حامد الغزالي 1 / 244

فهمه على عمومه من غير نظر إلى مخصصه قصور كبير في فهم المراد، يفضي إلى نتائج خطيرة، وخلط كبير في أحكام القرآن ومعانيه، ومخصصات العام في القرآن الكريم على ضربين:

ـ الضرب الأول: مخصصات متصلة بالنص العام، وهي أنواع، منها:

ـ الاستثناء، والوصف، والشرط، والغاية، وبدل البعض.

الضرب الثاني: المخصصات المنفصلة أو المستقلة، وهي أنواع، الذي يهمنا منها هو التخصيص بآية قرآنية أخرى، وهذه هي الأكثر صلة بما نحن بصدده من تفسير القرآن بالقرآن، وبإمكان الباحث أن يقف على نماذج متعددة في مصادر التفسير، خصوصا تلك التي عنيت بأحكام القرآن، ومثال ذلك :قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾{البقرة 226} قال ابن عطية رحمه الله :و " المطلقات " لفظ عموم يراد به الخصوص في المدخول بهن، ولم تدخل في العموم المطلقة قبل البناء ولا الحامل، ولا التي لم تحض، ولا القاعد، وقال قوم: تناولهن العموم ثم نسخن، وهذا ضعيف، فإنما الآية فيمن تحيض، وهو عرف النساء، وعليه معظمهن فأغنى ذلك عن النص عليه[1].

ولا يقتصر مبحث " تخصيص العموم في القرآن " من خلال نص قرآني آخر على مجال الأحكام العملية فحسب، كما هو الحال عند الأصوليين، بل إن المفسرين قد تناولوا تخصيص الألفاظ في مجالات أخرى فقد تحدثوا عن التخصيص في سياق الحديث عن الأحكام العقدية وغيرها، فتناولهم لمبحث العموم أوسع عندهم مما هو الحال عند غيرهم، ومثال ذلك قوله تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ﴾{النحل61} قال شمس الدين الشربيني: "فإن قيل: اسم "الناس" جنس يشمل الكل فيدخل في ذلك الأنبياء فيدل على عدم عصمتهم ؟

أجيب: بأنّ ذلك عام مخصوص بقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ {فاطر32} فالمذكور في هذه الآية إما كل العصاة المستحقين العقاب، أو الذين تقدّم ذكرهم من المشركين ومن الذين أثبتوا لله البنات، أو جميع الكفار بدليل قوله تعالى ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ {الأنفال 55}[2]

1 . المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية الأندلسي 1 / 292

2 . تفسير السراج المنير للخطيب الشربيني 2 / 188

4. حمل المجمل على المبين

يعرف أهل الأصول " المجمل " بتعاريف متعددة منها قولهم: ما له دلالة على أحد معنيين لا مزية لأحدهما على الآخر بالنسبة إليه [1].

وأما في اصطلاح أهل التفسير: فالتعبير عندهم بلفظ المجمل لا يأتي على مساق واحد، فهو عند الإمام الطبري: ما يحتمل معاني شتى [2].

ويقول الراغب الأصفهاني: حقيقة المجمل هو المشتمل على جملة أشياء كثيرة غير مخلصة [3]

وقال القرطبي: المجمل ما لا يفهم المراد منه [4]

وأيا يكن التعبير عن لفظ المجمل في استعمالات المفسرين فقد ورد في القرآن الكريم نصوص وألفاظ مجملة بهذا المعنى، وإذا كانت كذلك فهي تحتاج إلى إيضاح وبيان، حتى يترجح أحد المعاني المحتملات على الأخرى، وأول ما نختاره لرفع هذا الإجمال هو تطلب بيانه في القرآن الكريم ذاته، بناء على أصل " القرآن يفسر بعضه بعضا " قال الإمام فخر الدين الرازي رحمه الله: كل مجمل وجد في كتاب الله تعالى قد وجد في العقل أو في الكتاب أو في السنة بيانه [5].

ولدى تطبيقنا لهذه القاعدة نلحظ أن تفصيل المجمل وبيانه في القرآن يأتي على أنواع مختلفة، فقد يأتي البيان القرآني متصلا بالنص المجمل ذاته، ومثال ذلك قوله تعالى (وَكُلُواْ وَاشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلأَسْوَدِ) { البقرة 186} وقد جاء بيان المراد بالخيطين عقب هذه الآية بقوله تعالى (مِنَ ٱلْفَجْرِ) وقال تعالى (وَاتَّقُواْ ٱلذِى أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ){الشعراء132} ثم فصل هذا المجمل بقوله (أَمَدَّكُم بِأَنْعَـٰمٍ وَبَنِينَ وَجَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ) {الشعراء133 /134} وفي سورة الممتحنة ورد قوله تعالى (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ) {الممتحنة الآية 1} فاتخاذهم أولياء أمر مجمل يحتاج إلى بيان، وقد جاء ذلك البيان عقب ذلك في قوله تعالى (تُلْقُونَ

1 . انظر هذا التعريف وغيره في كتاب " إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول " لمحمد بن علي الشوكاني 12/2

2 . جامع البيان 8/ 254

3 . المفردات في غريب القرآن 1 / 98

4 . الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي 2/ 218

5 . مفاتح الغيب للإمام فخر الدين الرازي 1 / 184

إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ {الممتحنة1} وقد يأتي بيان المجمل مستقلا عن الآية المجملة ومنفصلا عنها، ومثال ذلك قوله تعالى (أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلأَنْعَٰمِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ){المائدة 1} فقوله تعالى (إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ) {العقود1 } مجمل يحتاج إلى بيان، وقد جاء تفصيله في آية أخرى وذلك في قوله تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُ ٱلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ) { المائدة 4} إلى قوله تعالى (وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ){المائدة 4}.

5 . حمل المطلق على المقيد .

المراد بتقييد الكتاب بالكتاب هو أن يأتي لفظ في آية مطلقا، ومقيدا في آية أخرى، فيحمل الإطلاق في الآية المطلقة على المقيد في الآية الأخرى، فتكون مقيدة بها، وجمهور المفسرين والفقهاء والأصوليين على جواز حمل المطلق على المقيد، ولحمل المطلق على المقيد من خلال النص القرآني صور متعددة منها ما هو متفق عليه، ومنها ما هو مختلف فيه، فمن الصور المتفق عليها:

. **أن يتحد السبب والحكم**، ومثاله قوله تعالى (حُرِّمَتْ عَلَيْكُ ٱلْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ) {المائدة 4} فقد ورد تحريمه مقيدا بكونه "مسفوحا" في قوله تعالى (قُل لآَّ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلآَّ أَنْ يَّكُونَ مَيْتَةً اَوْ دَماً مَّسْفُوحاً) {الأنعام 146}.فالحكم في الآيتين واحد، وهو التحريم، والسبب واحد فاتحد الحكم والسبب، فيحمل المطلق على المقيد في هذه الصورة بالاتفاق، لأن العمل بالمقيد عمل بالآيتين، والعمل بالمطلق عمل بإحدى الآيتين دون الأخرى، والعمل بهما أولى من العمل بإحداهما، وبالعمل بالآيتين يخرج المكلف من العهدة بيقين.

ومن الصور المختلف فيها:

. **أن يختلف السبب ويتحد الحكم**، ومثال ذلك قضية " الرقبة " فقد جاءت مطلقة في كفارة الظهار في قوله تعالى (وَالذِينَ يَظَّهَّرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَنْ يَّتَمَآسَّاً ذَالِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ) {المجادلة 3}

وجاءت مطلقة في كفارة اليمين في قوله تعالى (لاَ يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِاللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلاَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ {المائدة 91}

وجاءت الرقبة مقيدة بالإيمان في كفارة القتل الخطأ في قوله تعالى (وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ اَنْ يَّقْتُلَ مُومِناً اِلاَّ خَطَئاً وَمَن قَتَلَ مُومِناً خَطَئاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّومِنَةٍ)}النساء91{ فسبب الكفارة في الآية الأولى " الظهار " وفي الآية الثانية الحنث باليمين، وفي الثالثة القتل خطأ والحكم في جميع الصور واحد وهو عتق الرقبة، فاختلفت أنظار العلماء هاهنا في حمل المطلق على المقيد، فالأحناف وأكثر المالكية لا يحملون المطلق على المقيد، وذهب أكثر الشافعية والحنابلة إلى حمل المطلق على المقيد. فيجب عندهم أن تكون الرقبة مؤمنة في جميع الكفارات، تفعيلا لمبدأ حمل المطلق على المقيد، ومن الصور التي يمكن أن يكون فيها حمل للمطلق على المقيد في غير الأحكام الشرعية ما ورد في قوله تعالى (وَالْمَلَـٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِي ٱلاَرْضِ}الشورى 3{

فقد ورد هاهنا استغفار الملائكة لمن في الارض بإطلاق، بيد أن هذا الاستغفار جاء مقيدا في آية أخرى بأنه للمومنين قال تعالى (ٱلذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُومِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا) {غافر6} وكذا قوله تعالى (إِنَّ ٱلذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْراً لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ){آل عمران 89}

ففي هذه الآية الكريمة نفي لقبول توبة الكفار بإطلاق، وجاء نفيها مقيدا في آية أخرى قال تعالى (وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلَـٰنَ وَلاَ ٱلذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّار){ النساء 18}

6. تفسير المبهم.

والمبهم في القرآن على نوعين:

مبهم لم يدل دليل على تعيينه، فالأصل أن يبقى كذلك، لأنه لا فائدة في تعيينه، وما أخفاه الله تعالى عنا إلا لحكمة.

ومبهم في القرآن ورد تفسيره، إما في الكتاب أو في السنة، وهذا هو النوع المراد هاهنا، وهو أنواع:

منها: **إبهام في اسم جنس مجموع**، ومثاله قوله تعالى (فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ) { البقرة36 }فأبهم الكلمات في هذا الموضع، وجاء تفسيرها في قوله تعالى (قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ){ الأعراف22 }

ومنها: الإبهام في اسم جنس مفرد، ومثاله قوله تعالى (وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٦﴾ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ) {الأعراف137} فأبهم الكلمة هنا وبينها في قوله تعالى (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ) {القصص 4}

ومنها: الإبهام في اسم جمع، ومثاله قوله تعالى (كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ) {الدخان27/24} فأبهم " القوم هنا " كما أبهم ذلك في سورة الأعراف في قوله (وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا) {الأعراف 136} لكنه بين المراد بهؤلاء القوم في سورة الشعراء قال تعالى (فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ) {الشعراء57 ـ58}

والأمثلة على هذه الأنواع وغيرها كثيرة في القرآن الكريم، تعرف من خلال المراجعة في مصادر التفسير وكذا في الكتب التي عنيت بتفسير المبهمات في القرآن الكريم[1] .

7 . نسخ آية بأخرى

ووجه البيان بالنسخ أن النص الناسخ يتناول الحكم المذكور في المنسوخ، ويعرب عن مآله وعن مصير العمل به، فهو من هذا الوجه بيان لحقيقة الحكم لا لمعنى اللفظ، ومن أجل ذلك اشترط العلماء قديما في المفسر أن يكون عالما بالناسخ والمنسوخ، فلولا صلته بعلم التفسير وعلاقته به لما اشترطوا العلم به لمن يتعاطى التفسير، وفي الإتقان أن عليا بن أبي طالب رضي الله عنه سأل قاضيا فقال له: أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال: لا، قال: هلكت وأهلكت .

وعن الضحاك بن مزاحم قال مر ابن عباس رضي الله عنهما بقاض يقضي فركضه برجله قال: تدري ما الناسخ من المنسوخ ؟ قال: ومن يعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قال: وما تدري ما الناسخ من المنسوخ ؟ قال: لا، قال هلكت وأهلكت [2].

إن هذه الآثار مع واقع الحال تؤكد أن دور النسخ في البيان عظيم، وأن الجهل به أمر جسيم، وذلك لصلته بموضوع الأحكام الذي يحظى بحيز كبير في مجال تفسير القرآن، ومن أجل ذلك، وتفعيلا لقاعدة تفسير القرآن بالقرآن درج المفسرون على بيان الناسخ والمنسوخ، بأنواعه المعروفة، ومن أمثلة ذلك عن ابن عباس، في قوله: (ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَالاَقْرَبِينَ)} البقرة179 {قال: نسختها هذه الآية: (لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَالاَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَالاَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَّفْرُوضاً) {النساء: 7}[3].

---

1 –قال السيوطي: أفرده بالتأليف السهيلي، ثم ابن عساكر ،ثم القاضي بدر الدين بن جماعة، ولي فيه تأليف لطيف جمع فوائد الكتب المذكورة، مع زوائد أخرى، على صغر حجمه جدا . الإتقان 2 / 403 قلت : واسم كتابه :" مفحمات الأقران في مبهمات القرآن " وهو مطبوع وموجود.

2 –الناسخ والمنسوخ لابن حزم 1 / 6

3 . تفسير ابن كثير 493/1

وعن قتادة في قوله (فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَاتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ) {البقرة108} قال: نسختها:(فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلاَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَاقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ){التوبة 5} [1].

وعنه أيضا في قوله تعالى (وَلِلهِ ٱلْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ) {البقرة114}قال: كانوا يصلون نحو بيت المقدس، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة قبل الهجرة، وبعدما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا ثم وجه بعد ذلك نحو الكعبة، البيت الحرام، فنسخها الله في آية أخرى (فَدْ نَرِىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَيهَاً فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ)}البقرة143{ قال: فنسخت هذه الآية ما كان قبلها من أمر القبلة[2]

8 . تفسير قراءة بأخرى

لقد ذكر المفسرون لتعدد القراءات حكما كثيرة، ما يهمنا هنا هو ما له صلة ببيان المعنى، فقد أكدوا على أن كل قراءة هي بمنزلة آية أخرى، إذ كان تنوع اللفظ بكلمة تقوم مقام آيات، ولو جعلت دلالة كل لفظ آية على حدتها لم يخف ما كان ذلك من التطويل، ومثال ذلك اختلاف القراءة في كلمة (**وأرجلكم**) من قوله تعالى (وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ){المائدة 7} بالنصب وأرجلَكم، والخفض وأرجلِكم، ففي قراءة النصب بيان لحكم غسل الرجل، حيث يكون العطف على معمول فعل الغسل (فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ) وفي قراءة الجر بيان لحكم المسح على الخفين عند وجود ما يقتضيه، حيث يكون العطف على معمول فعل المسح (وَامْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ) { المائدة 7} فدلت الآية بهاتين القراءتين على حكمين متغايرين ولو لم يكن كذلك لاحتاج كل حكم إلى آية خاصة لبيانه[3] .

1- جامع البيان 2/ 504

2 . المرجع السابق / 502

3 . دراسات في علوم القرآن الكريم للدكتور فهد الرومي ص 367

ومن أمثلة ذلك أيضا في قوله تعالى (وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَاتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ) {البقرة 220} في يطهرن قراءتان:

القراءة الأولى بتخفيف الطاء وضم الهاء ومعناها، حتى ينقطع عنهن الدم.

القراءة الثانية: (حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ)،بتشديد الطاء والهاء والمعنى: حتى يغتسلن بالماء، وبسبب الخلاف في هاتين القراءتين اختلف المفسرون متى يحل وطء الزوجة، عند الطهر، أو التطهر، وقد أورد الشوكاني في تفسيره القراءتين معا، ثم بيان ما ترتب عليهما من خلاف بين المفسرين، ثم عقب على ذلك بقوله : والأولى أن يقال: إن الله سبحانه جعل للحل غايتين كما تقتضيه القراءتان، إحداهما: انقطاع الدم والأخرى: التطهر منه، والغاية الأخرى مشتملة على زيادة على الغاية الأولى، فيجب المصير إليها، وقد دل أن الغاية الأخرى هي المعتبرة قوله تعالى بعد ذلك {فَإِذَا تَطَهَّرْنَ } فإن ذلك يفيد أن المعتبر التطهر لا مجرد انقطاع الدم، وقد تقرر أن القراءتين بمنزلة الآيتين، فكما أنه يجب الجمع بين الآيتين المشتملة إحداهما على زيادة بالعمل بتلك الزيادة كذلك يجب الجمع بين القراءتين[1].

9 . التفسير بالمناسبة والسياق.

إذ أن السياق هو نظر في نص قرآني سابق أو لاحق نستعين به على فهم نص آخر مجاور له فهو داخل في مسمى " تفسير القرآن بالقرآن ".

وأما " المناسبة " فقد نقل الإمام بدر الدين الزركشي كلاما عن بعض مشايخه يعد في غاية الأهمية والمكانة، لما له من دور وأثر في تطبيق المناسبات القرآنية عند تناول النص بالتفسير والبيان، يقول رحمه الله: والذي ينبغي في كل آية أن يبحث أول كل شيء عن كونها مكملة لما قبلها أو مستقلة، ثم المستقلة ما وجه مناسبتها لما قبلها ؟ ففي ذلك "علم جم"، وهكذا في السور يطلب وجه اتصالها بما قبلها وما سيقت له[2] .

إن الإمام الزركشي يرسم للمفسر منهجا واضحا في تلمس المناسبات بين الآيات والسور، فهو يقرر: أن الآيات تأتي على ضربين: الضرب الأول: آيات لا يكتمل معناها إلا بأخواتها.

الضرب الثاني: آيات مستقلة المعنى في نفسها، وهذا النوع الثاني هو الآخر له صلات قربى وروابط ووشائج بما قبله وما بعده، على المفسر أن يبحث فيها، وأن يوقد قريحته وجهده في كشف صلاتها، إذ

1 . فتح القدير 1 / 396

2 . البرهان في علوم القرآن 37/1

التوقيف في ترتيب الآيات دلالة على وجود الروابط والمناسبات، وإن بان من أول وهلة غياب أية صلة أو رابطة، وهذا المعنى الذي قررناه بين الآيات يقال نفسه بين السور أيضا.

إن اتباع هذا المنهج أعان المفسرين كثيرا في بيان النصوص القرآنية، وكشف لهم عما بين نصوص القرآن من اعتلاق وارتباط، ومن أمثلة ذلك: اختلاف المفسرين في قوله تعالى (وَالصَّـٰفَّـٰتِ صَفّـٰا) {الصافات1} حيث قال الجمهور: إن الصافات هي الملائكة، وقال آخرون: هي الطير، والصحيح الأول، لأنه ذكر في آخر السورة قول الملائكة (وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ) { الصافات 165} وربط فواتح السور بخواتمها نوع من أنواع المناسبات في القرآن الكريم [1] يبين المعنى ويكشف المراد.

10 . تفسير الألفاظ الغريبة

هنالك الكثير من الألفاظ القرآنية الواردة في الآيات تحتاج إلى إيضاح وبيان، وللمفسرين مسالك وطرق في معرفة المعنى المراد من تلك الألفاظ، وغالبهم يعول على المصادر اللغوية التى عنيت بتفسير الكلمات القرآنية، وفي طليعتها كتب " غريب القرآن، " ولكن المنهج الأسلم في ذلك أن يرجع إلى القرآن ذاته لمحاولة كشف المعنى من اللفظة القرآنية، ولذلك مسالك متعددة، فقد يتضح معناها:

. **من خلال ما ورد بعدها**، وذلك كتفسير معنى كلمة " هلوعا " في قوله تعالى (إِنَّ ٱلإِنسَـٰنَ خُلِقَ هَلُوعاً)"{المعارج19} فقد جاء بعده قوله تعالى (إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً) {المعارج19/ 20} قال ابن جزي: سئل أحمد بن يحيى مؤلف الفصيح عن الهلوع فقال: قد فسره الله فلا تفسير أبين من تفسيره وهو قوله (إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعاً) وذكره الله على وجه الذم لهذه الخلائق، ولذلك استثنى منه المصلين لأن صلاتهم تحملهم على قلة الاكتراث بالدنيا، فلا يجزعون من شرها ولا يبخلون بخيرها [2] .

وقد يكون المسلك الموصل إلى بيان حقيقة المعنى.

. **ورود بيان اللفظة في ذات الموضوع في موضع آخر من سورة أخرى**، وذلك كقوله تعالى (وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ)}هود81{ فقد اختلف المفسرون في معنى كلمة (**سجيل**) بيد

1 . وقد ألف الإمام السيوطي كتابا لطيفا في هذا الموضوع سماه " مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع . مطبوع

2 . التسهيل لعلوم التنزيل 2/ 486

أن الإمام الطبري فسرها "بالطين،" وذلك أخذا من قوله تعالى في موضع آخر في ذات الموضوع (لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ){الذاريات33}

. وقد يكون الطريق إلى بيان معنى اللفظة **ورودها على وجه من التصريف بينة المعنى في موضوع آخر، فينئ وضوح معناها هناك على معنى أختها في موضع آخر**، ومثال ذلك قوله تعالى في سورة الكهف (وَكَلْبُهُم بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ){الكهف18} فقد نقل عن بعض المفسرين أن المراد بالوصيد التراب، أو الصعيد، ورجح الإمام الطبري أن المراد بالوصيد هو " الباب أو فناء الباب "[1] وذلك أن الباب يوصد وإيصاده إغلاقه وإطباقه، وذلك ما دل عليه قوله تعالى (إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّوصَدَةٌ){الهمزة8}.

. وقد يكون المسلك الموصل إلى بيان المعنى **ورود الكلمة في آيات أخرى يتفق معناها مع معنى الآية التي وردت فيها الكلمة المراد تفسيرها**، والفرق بين هذا الوجه والذي قبله أنه لا يشترط في هذه الحالة وحدة الموضوع، بل مجرد التوافق في المعنى، ومثال ذلك قوله تعالى (ٱلذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلإِثْمِ وَالْفَوَٰحِشَ إِلاَّ ٱللَّمَمَ){النجم32} فقد كان للمفسرين أقوال في بيان معنى "اللمم "، فقد رأى بعضهم أن المراد بها ما ألم به الناس من الفواحش في أيام الجاهلية، وقيل: إن المراد باللمم، أن يلم بتلك الكبائر ثم يتوب منها[2]، ولعل القول الأقرب للصواب أن المراد باللمم صغائر الذنوب مما لم يصل حد الكبيرة، والذي يرجح هذا الوجه ورود هذا المعنى في آية أخرى، وهي قوله تعالى (إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مَّدْخَلًا كَرِيماً){النساء31}.

11 . الجمع بين ما يوهم أنه مختلف من الآيات.

فإن الناظر في القرآن الكريم والمتتبع لآياته إذا لم يكن عارفا بمساقاتها، ولا مدركا لأوجه الجمع بينها، قد يبدو له من أول وهلة تعارض ما بين تلك الآيات ـ وخصوصا في موضوع القصص منه ـ فقد يقف على آيات تتحدث في القصة الواحدة عن أحوال تبدو له مختلفة، فيتوهم أنها متعارضة أو متناقضة، ومعلوم على سبيل القطع واليقين أن كتاب الله تعالى منزه عن ذلك، فقد قال تعالى (وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ إِخْتِلَٰفاً كَثِيراً) {النساء81} ولا سبيل إلى رفع هذا الاختلاف المتوهم إلا بجمع الآيات

1. جامع البيان 17/ 623

2 . انظر: النكت والعيون للماوردي 5/ 400

مع بعضها، ومعرفة ما بينها من فوارق، حتى يظهر أن لكل لفظة وجملة وآية وجهها الذي تحمل عليه، ومن أجل ذلك خص العلماء هذا الموضوع بمؤلفات تحت عنوان " مشكل القرآن "[1] للرد أولا على الزنادقة الذين استغلوا هذا الباب، فولجوا منه للطعن في القرآن، وتوجيه سهامهم إلى مصدر العز في الأمة، وهم يحسبون أنهم بذلك قد نالوا بغيتهم، وحققوا غايتهم، وأنى لهم ذلك ؟

فقد كانت هذه الجهود من العلماء سدا منيعا تكسرت دونه جميع السهام، إذ كان من منهجهم في إزاحة هذا التعارض الظاهري، الجمع بين الآيات القرآنية، وبيان مسار كل واحدة منها، فكانت بذلك تفسر بعضها بعضا، وتبين كل آية معنى أختها، بدل أن تعارضها أو ترد عليها، ومثال ذلك " عصا موسى عليه السلام " حيث وصفها القرآن مرة بأنها (فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ){طه19} وفي موضع آخر (فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ){النمل10} ومرة بأنها (فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ) {الأعراف106} فاختلف الوصف والحدث واحد، وقد جمع المفسرون بين هذه الآيات فقالوا :إن الله سبحانه وتعالى جعل عصا موسى كالحية في سعيها، وكالثعبان في عظمها، وكالجان في خفتها، قال الشيخ الشربيني: فإن قيل: كيف قال هنا (ثعبان مبين) وفي آية أخرى (فإذا هي حية تسعى) وفي آية ثالثة (كأنها جان) والجان مائل إلى الصغر والثعبان إلى الكبر ؟

أجيب: بأن الحية اسم الجنس، ثم لكبرها صارت ثعباناً، وشبهها بالجان لخفتها وسرعتها، ويحتمل أنه شبهها بالشيطان لقوله تعالى (وَالْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ) (الحجر: 27)ويحتمل أنها كانت صغيرة كالجان، ثم عظمت فصارت ثعباناً.[2] فهي أوصاف مختلفة تصدق على شيء واحد، كأن تقول عن زيد من الناس: إنه كالبحر، والريح، والأسد، فهو بحر في كرمه، وكالريح في خفته وسرعته، وكالأسد في شجاعته وقوته.

ومن هذا القبيل أيضا ما ذكره الله تعالى في " قصة خلق آدم عليه السلام " فقد أخبر في موضع بأنه خلقه من تراب، وفي موضع آخر خلقه من طين، وفي مواضع من صلصال من حمإ مسنون، وصلصال

1. ومن الكتب المؤلفة في هذا الموضوع كتاب " الرد على الملحدين في متشابه القرآن " لمحمد بن المستنير الشهير بقطرب ت 206 هـ . وكتاب " مشكلات القرآن " لأبي داود سليمان بن أشعث السجستاني ت 275 هـ وكتاب "تأويل مشكل القرآن " لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري ت 276 هـ ومن المعاصرين :الشيخ محمد بن الأمين الشنقيطي فقد ألفا كتابا سماه " دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب " والكتب في هذا الموضوع كثيرة قديما وحديثا.

2. تفسير السراج المنير 3/ 33

كالفخار، وهذا كله حق لا ريب فيه، ولا تعارض، فالتراب إذا خلط بالماء صار طينا، والصلصال طين مخصوص، وإذا يبس سار فخارا، فهذه أطوار في الخلق، والله أعلم، وأمثلة هذا النوع كثيرة[1] .

المبحث الثالث: ضوابط تفسير القرآن بالقرآن.

إن عملية تفسير القرآن بالقرآن تتطلب جهدا شاقا، ومواصفات ذاتية وإجرائية أساسية لا بد من استحضارها حين القيام بسلوك هذا المنهج، ويمكن اعتبارها ضوابط تضبط هذه العلمية لتحقق النتائج الصحيحة والسليمة، والغرض المطلوب من بيان المعنى في كتاب الله تعالى، ويمكن تقسيم هذه الضوابط إلى ثلاثة أقسام:

أولا: ضوابط تتعلق بذات المفسر، ومن أهمها:

1 . أهلية المفسر، بتوافر شروط المفسر فيه، وذلك أن تفسير القرآن بالقرآن ليس عملاً آلياً لا يقوم على شيء من النظر، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبر والتعقل، إذ ليس حمل المجمل على المبين، أو المطلق على المقيد، أو العام على الخاص، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهين الذى يدخل تحت مقدور كل إنسان، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة. [2]

ولقد تحدث المصنفون في علوم القرآن عن هذه الشروط، وبينوا كذلك الأدوات التي يحتاج إليها المفسر، ولم يسمحوا لمن لم يتمكن من هذه العلوم أن يخوض لجة التفسير، حتى لا يقول على الله ما لا يعلم، أو يتكلم في القرآن برأيه، فيدخل تحت الوعيد الشديد الوارد في حق من يفسر القرآن برأيه، وبصفة خاصة في هذا النوع، حيث يزعم أن هذه الآية هي بيان لهذه الآية، فإذا لم يكن لديه العلوم المؤهلة لهذا الضرب من التفسير فقد قال على الله بغير علم.

ومن أهم العلوم التي يجب أن يكرع منها من يريد سلوك هذا المنهج علمان: "علم أصول الفقه" "وتفاسير آيات الأحكام، " أما الأول فقد أكد العلماء على ضرورته للمفسر، ومدى حاجته إليه لصلته القوية بعلم التفسير عامة، وهذا المنهج منه بصفة خاصة، قال الزركشي: فائدة: في ضرورة معرفة المفسر قواعد أصول الفقه، ولا بد من معرفة قواعد أصول الفقه، فإنه من أعظم الطرق في استثمار الأحكام من الآيات"[3].

1 . انظر: قواعد تفسير القرآن لخالد بن عثمان السبت 1 / 129

2 . انظر " التفسير والمفسرون"33/1

3 . البرهان في علوم القرآن 2 / 6

وذلك أن عددا من مباحث هذا العلم هي لصيقة بمنهج "تفسير القرآن بالقرآن"، وذلك مثل مبحث الإجمال والتفصيل، والعموم والخصوص، والإطلاق والتقييد، وما أشبه هذا.

وأما تفاسير الأحكام فإنها تمثل بحق المجال العملي والتطبيقي "لتفسير القرآن بالقرآن"، وذلك لكون الأحكام القرآنية تتوزع في سور كثيرة، فيستفيد سالك هذا المنهج في طرائق هؤلاء في ربط الآيات ببعضها، وحمل المتقدم منها على المتأخر، والمجمل على المبين، والعام على الخاص وهكذا .

2 . سلامة الاعتقاد وأهلية العدالة، والمراد من هذا الشرط أن لا يكون سالك هذا المنهج ممن اختلت عنده الموازين، واضطربت التصورات، واختلت المعتقدات، كمن ينكر العمل بالسنة مثلا، ولا يرى وجها له، فيكتفي بتفسير القرآن بالقرآن داخلا من هذا الباب للتشويش على الأمة، وبث الاضطراب بين أبنائها، ومن أجل ذلك عد الإمام السيوطي رحمه الله هذا الشرط أول ما يطلب في المفسر، ومنه ولا شك سالك هذا المنهج، قال رحمه الله ناقلا عن الإمام أبي طالب الطبري: اعلم أن من شرطه صحة الاعتقاد أولا، ولزوم سنة الدين، فإن من كان مغموصا عليه في دينه لا يؤتمن على الدنيا فكيف على الدين ؟

ثم لا يؤتمن من الدين على الإخبار عن عالم، فكيف يؤتمن في الإخبار عن أسرار الله تعالى ؟

ولأنه لا يؤمن إن كان متهما بالإلحاد أن يبغي الفتنة ويغر الناس بليه وخداعه كدأب الباطنية، وغلاة الرافضة، وإن كان متهما بهوى لم يؤمن أن يحمله هواه على ما يوافق بدعته، كدأب القدرية فإن أحدهم يصنف الكتاب في التفسير ومقصوده منه الإيضاح الساكن ليصدهم عن إتباع السلف ولزوم طريق الهدى [1].

3 . المعرفة بالقراءات المتواترة. إذ ربما يكون تفسير الآية بقراءة صحيحة أخرى، إذ كل قراءة بمثابة آية مستقلة.

قال السيوطي في الإتقان مبينا العلوم التي يحتاج إليها المفسر: الثامن "علم القراءات" لأن به يعرف كيفية النطق بالقرآن، وبالقراءات يترجح بعض الوجوه المحتملة على بعض [2].

فعلم القراءات رافد مهم من روافد التفسير، إذ لا تكمن الحكمة في تنوع القراءات واختلافها في التيسير على الأمة في مجال الحفظ والأداء والتلاوة فقط، بل إن فائدتها أيضا تتجلى في تنوع المعاني وفي

1 . الإتقان في علوم القرآن 2 / 498

2 . الإتقان في علوم القرآن 512/2

تكثيرها فتكون أوجه القراءات المختلفة مساعدة على تجلية المعاني المتوافرة التي تستبطنها الكلمة القرآنية التي تعددت قراءاتها.

ومع أن العلماء لا يجيزون القراءة بالشاذ إلا أنهم عدوها مصدرا مهما من مصادر التفسير، فكثيرا ما نجد المفسرين يعتمدون عليها في بيان معنى الآيات والكلمات القرآنية، فهذا أبو حيان الأندلسي يقول في قوله تعالى (فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ) { البقرة 35 }: وحكوا أن عبد الله قرأ (فوسوس لهما الشيطان عنها)، وهذه القراءة مخالفة سواد المصحف المجمع عليه، فينبغي أن يجعل تفسيرا، وكذا ما ورد عنه وعن غيره مما خالف سواد المصحف[1].

وتتحقق المعرفة بالقراءات إما من خلال الضبط والإتقان عن أئمتها المتقنين، أو من خلال الرجوع إلى مصادرها المدونة وكتبها المرقونة، مع الرجوع كلما أمكن للتلقي الشفهي، لضبط وسلامة الأداء المعين على استجلاء المعنى.

ثانيا: ضوابط تتعلق بمنهج تفسير القرآن بالقرآن ومن أهمها:

1 . الاهتداء بمنهج السلف في تفسير القرآن بالقرآن. فقد سبق تقرير القول بأن هذا المنهج سلكه النبي عليه الصلاة والسلام وكذا الصحابة الكرام والتابعون من بعده، فعلى متعاطي هذا النوع من التفسير والسالك لهذا المنهج أن يترسم خطى السلف في ذلك، فيرجع إلى ما أثر عنهم في هذا الباب، "فإنه كله جار على ما تقضي به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية[2]، "فيقف عنده متأملا فاحصا، لاستخراج المسالك التي اتبعوها في حمل النصوص على بعضها، إذ حمل نص على آخر لا بد فيه من مراعاة مجموعة من الملاحظ، وهذا النوع من تفسير السلف يعتبر هاديا ومرشدا للمفسر في هذا المهيع، وقد كان لابن عباس رضي الله تعالى عنه الكعب المعلى في هذا الباب، ويمكن أن نعد تفسير " ابن جرير الطبري "إماما في هذا المحراب، فقد جمع في تفسيره ثروة هائلة من أقاويل السلف في التفسير، وهي ذات مناهج ومدارج، فسبرها وفهمها ومعرفة طرائقهم فيها يحدد للمفسر المعالم الهادية لهذا المنهج، بحيث يعتمد عليها في تفسيره ويسلك سبيلها.

1 . البحر المحيط 1 / 313

2 . الموافقات في أصول الشريعة 4 / 253

2 . أن يجمع الآيات المشتركة في الموضوع الواحد، ثم ينظر فيها جميعَها، ويرى ما بينها من أوجه التعالق والانتظام، من عموم أو خصوص، أو إطلاق أو تقييد، أو نحو ذلك من أوجه الارتباط، وهذا يتطلب من القائم بهذا العمل أن يكون من حفاظ القرآن الكريم العارفين بمعانيه، المدركين للآيات المتشابهة والمتماثلة فيه، أو أن يستعين بالمعاجم المتخصصة في هذا الباب، سواء منها المعاجم المفهرسة لألفاظ القرآن الكريم، مثل: " معجم محمد فؤاد عبد الباقي "، أو الموضوعية المتخصصة مثل: "تفصيل آيات القرآن " لجول لابوم، أو كتاب "تصنيف آيات القرآن "لمحمد إسماعيل.

وقد بين الشاطبي رحمه الله أن كتاب الله تعالى من جهة النظر إليه يمكن عده واحدا في نفسه، ولا يمكن فهم معناه إلا من خلال النظر فيه باعتباره جملة واحدة، قال: إن كتاب الله تعالى يتوقف فهم بعضه على بعض بوجه ما، وذلك أنه يبين بعضه بعضًا؛ حتى إن كثيرًا منه لا يفهم معناه حق الفهم إلا بتفسير موضع آخر أو سورة أخرى [1].

3 . معرفة ما بين الكلمات والألفاظ من فوارق دقيقة لها تأثير في المعنى، فليست الكلمات المتشابهة في الحروف والبناء تتفق دائما في المعنى، بل قد يكون بينها من الفوارق ما لا يدرك إلا بكثير من التأمل، ومعرفة أساليب العرب ومناهجهم في البيان، وهذا يتطلب من السالك لهذا المنهج الإحاطة بما يسمي " علم الوجوه والنظائر " فإن الكتب المختصة بهذا الموضوع تبين معنى اللفظ في عدة آيات، وتذكر وجه الفرق فيها في كل موضع، "فلا غنى للمتدبر الحصيف عن انتجاع هذا العلم، فإنه مدخل إلى تحقيق المفردات القرآنية، وإعطاء كل مفردة مدلولها الخاص بها بحسب السياق، ذلك أن لها وضعا في كل استعمال، أو عرفا قد يغلب عليها، أو دلالة خاصة تكتسبها من عموم المعنى اللغوي، وهذا من ثراء القرآن الكريم، فإنه يعبر عن المعنى الواحد بألفاظ مختلفة، كما يعبر بلفظ واحد عن معان شتى، حتى تكتسي العبارة القرآنية رونق الجدة، وتدفع عن قارئها الملل والضجر"[2] .

ثالثا: ضوابط تتعلق بثمرة المنهج، ومن أهمها:

1 . صحة الأثر التفسيري إن كان منقولا، فإن كان القائم بالتفسير هو النبي عليه الصلاة والسلام، ففي هذه الحالة يجب على ناقل هذا التفسير أن يتحرى الصحة فيما ينقل، إذ ينطبق على قبول هذا الخبر ما ينطبق على جميع الأخبار المروية عن النبي عليه الصلاة والسلام، مما هو مبين في مصنفات علوم الحديث،

1 . الموافقات في أصول الشريعة لأبي إسحاق الشاطبي 4 / 275

2 . النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر، الدكتور قطب الريسوني ص 441

ولهذا الحديث التفسيري درجته من حيث الصحة والحسن والضعف، بمقدار ما يتوافر فيه من شروط تتعلق بكل من الراوي والمروي، وأعتقد أن ما صح عن النبي عليه الصلاة والسلام مما يتعلق بهذا الضرب قليل، فقد تتبعت هذا الأمر في مصادر السنة التي عنيت بنقل التفسير النبوي، وكذا بكتب التفسير الأثرية فما وقفت فيها إلا على القليل [1].

ومن أمثلة ما صح من هذا النوع:

. حديث عبد الله بن مسعود في تفسير "الظلم "، وقد سبق ذكره[2] .

. حديث أبي سعيد بن المعلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته[3]. والحديث تفسير لآية الحجر المكية (وَلَقَدْ ـاتَيْنَـٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ) {الحجر87}

. حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: مفاتح الغيب خمس، ثم قرأ (إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) {لقمان33}[4]

قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: لقبت هذه الخمسة في كلام النبي صلى الله عليه وسلم "بمفاتح الغيب "، وفسر بها قوله تعالى (وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ) {الأنعام60 }[5]

وإما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن مما يعزى إلى الصحابة الكرام، كعبد الله بن عباس، أو ابن مسعود، أو علي بن أبي طالب، أو غيرهم، وهنا أيضا لا بد من ملاحظة الطريق الذي وصل منه هذا التفسير، فإن الصحابة المشهورين بالتفسير قد نقلت أقوالهم من طرق متعددة، منها ما اتسم بالسلامة، ومنها ما فيه ضعف بانقطاع أو خرم في عدالة.

1 . أما مطلق التفسير النبوي للقرآن فالأحاديث فيه متوافرة ،وقد جمع شيخنا المحدث عبد الله بن عبد القادر التليدي كتابا في هذا الباب أسماه " الجواهر واللآلئ المصنوعة في تفسير القرآن العظيم بالأحاديث الصحيحة المرفوعة " والكتاب طبعته دار البشائر بلبنان .2003.

2 . سبق تخريجه ص 5

3 . صحيح البخاري كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب 17/6

4. صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو 56/6

5 . التحرير والتنوير لابن عاشور 10 / 198

وإن كان تفسير القرآن بالقرآن صادرا عن تابعي فمن دونه، فهو هاهنا تفسير بالرأي والاجتهاد.

وقد فصل الإمام بدر الدين الزركشي هذا الذي قلناه بكلام دقيق عميق نذكره هاهنا للتأكيد وزيادة في الإيضاح والتبيين، يقول: واعلم أن القرآن قسمان: أحدهما ورد تفسيره بالنقل عمن يعتبر تفسيره، وقسم لم يرد، والأول ثلاثة أنواع: إما أن يرد التفسير عن النبي صلى الله عيه وسلم، أو عن الصحابة، أو عن رؤوس التابعين، فالأول يبحث في عن صحة السند، والثاني ينظر في تفسير الصحابي فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان، فلا شك في اعتمادهم، وإن فسره بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه، وحينئذ إن تعارضت أقوال جماعة من الصحابة فإن أمكن الجمع فذاك، وإن تعذر قدم ابن عباس لأن النبي صَلَّى اللَّهُ عليه وسلَّم بشره بذلك حيث قال: "اللهم علمه التأويل" وقد رجح الشافعي قول زيد في الفرائض لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أفرضكم زيد" فإن تعذر الجمع جاز للمقلد أن يأخذ بأيها شاء، وأما الثالث وهم رؤوس التابعين إذا لم يرفعوه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولا إلى أحد من الصحابة رضي الله عنهم فحيث جاز التقليد فيما سبق فكذا هنا وإلا وجب الاجتهاد[1].

2 . أن لا يتعارض تفسير الآية بالآية مع المعنى العام الوارد في سياق الآية المراد تفسيرها، وذلك أن دلالة الآية الثانية على معنى الآية الأولىٰ قد لا تكون قطعية، وإنما تستفاد من خلال قرينة من القرائن الدالة على المعنى قائمة على مجموعة من الملاحظ، قد يكون من بينها توارد اللفظة في الموضعين، لكن دلالة السياق في هذه الحالة تكون أقوى، فتحمل كل آية على سياقها الذي وردت فيه، "فإن دلالة السياق ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة، وهو من أعظم القرائن الدالة على مراد المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظراته، وانظر إلى قوله تعالى (ذُقِ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ) {الدخان 47} كيف تجد سياقه يدل على أنه الذليل الحقير[2].

قلت: ومن أمثلة ما تعارض فيه السياق مع التفسير بالآية ما أورده الإمام محمد بن جرير الطبري رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى من سورة عبس (ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ) {عبس20 } فقد أورد جملة من الأقوال في بيان معنى هذه الجملة، ومنها قول لمجاهد وهو: التيسير لطريق الخير والشر، أخذا من قوله تعالى (إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً) {الإنسان3} بيد أن ابن جرير لم يرتض هذا

1 . البرهان في علوم القرآن 2 / 172

2 . البرهان في علوم القرآن 2 / 201

التفسير، ورجح عليه معنى آخر وهو المناسب للسياق فقال: وأولى التأويلين عندي بالصواب في ذلك قول من قال: ثم الطريق وهو الخروج من بطن أمه يسره، وإنما قلنا ذلك أولى التأويلين بالصواب لأنه أشبههما بظاهر الآية، وذلك أن الخبر من الله قبلها وبعدها عن صفة خلقه وتدبيرِه جسمَه وتصريفِه إياه في الأحوال، فالأولى أن يكون أوسطُ ذلك نظيَر ما قبله وما بعده[1].

3 . ائتلاف هذا التفسير مع المقصد الذي جاء له الكتاب بجملته. وهذا شرط ضروري في قبول هذا التفسير، إذ لا بد من اتفاقه مع المقاصد العامة والخاصة التي جاء الكتاب لتحقيقها.

يقول الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني رحمه الله: والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه، بأن يجمع ما تكرر في مواضع منه، وينظر فيه، فربما استعمل بمعان مختلفة، كلفظ " الهداية " وغيره، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملته من الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه، وقد قالوا: إن القرآن يفسر بعضه بعضا، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول، واتفاقه مع جملة المعنى، وائتلافه مع القصد الذي جاء له الكتاب بجملته [2].

4. أن لا يتعارض هذا التفسير مع ما صح من تفسير النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا كانت الآية قد فسِّرت من قبل النبي صلى الله عليه وسلم وجب قبول ذلك التفسير والأخذ به، ولا يعول على غيره، خصوصا إذا عارضه، فإن أعلم الناس بمعاني القرآن الكريم على الجملة والتفصيل هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يقول الإمام أبو بكر بن العربي المعافري رحمه الله في كتابه " أحكام القرآن" في تفسير قول الله تعالى (وَلَقَدْ ـاتَيْنَـٰكَ سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَالْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ){الحجر 87} بعد أن ذكر الخلاف وتفسير النبي صلى الله عليه وسلم للآية: وبعد تفسير النبي صلى الله عليه وسلم فلا تفسير، وليس للمعترض إلى غيره إلا النكير، وقد كان يمكن لولا تفسير النبي صلى الله عليه وسلم أن أحرر في ذلك مقالا وجيزا، وأسبك من سنام المعارف إبريزا، إلا أن الجوهر الأغلى من عند النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأعلى[3] " .

ولا يقال: إن تفسير النبي صلى الله عليه وسلم معارَض بالقرآن، والقرآن أقوى في الحجة من السنة؟

1 . جامع البيان 224/24

2 . مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني 2 / 52

3 . أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي 3 / 113

ذلك أننا هنا لا نعتبر التفسير بالنص القرآني أمرا قاطعا في الدلالة على المعنى المراد، إذ غاية ما هنالك أن المفسر اجتهد في تفسير نص بآخر، وقد عارض هذا الاجتهادَ نصٌ صحيح صريح من السنة فوجب تقديمه من أجل ذلك.

ولذلك عجب الإمام محمد بن علي الشوكاني في تفسيره " فتح القدير " من تفسير الزمخشري في الكشاف لقوله تعالى (ٱلذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ {الأنعام83} حيث فسر الزمخشري الظلم هاهنا بالمعصية تقريرا لمذهبه[1]، فقال الشوكاني: والعجب من صاحب الكشاف حيث يقول في تفسير هذه الآية: وأبى تفسيرَ الظلم بالكفر لفظ "اللبس، " وهو لا يدري أن الصادق المصدوق قد فسرها بهذا، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل[2].

قلت: والزمخشري رحمه الله يصنع هذا في مواضع، فقد كان مذهبه الاعتزالي يجعله يتحاشى الأخذ بالحديث، ويذهب إلى تأويل النص القرآني بنص آخر، هروبا من التفسير الصريح الثابت في السنة، ومن أمثلة ذلك صنيعه في تفسير " الزيادة " في قوله تعالى (لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ)}يونس 29{

فإن جمهور المفسرين من أهل السنة ذهبوا إلى تفسيرها "بالنظر إلى وجه الله تعالى يوم القيامة"، اعتمادا على أحاديث صحيحة في الباب[3].

ومع وضوح هذا التفسير فإننا نجد الزمخشري يقول في الكشاف: (لِّلذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ) الْحُسْنَى المثوبة الحسنى، وَزِيَادَةٌ، ما يزيد على المثوبة وهي التفضل، ويدلّ عليه قوله تعالى (وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ)}النساء 72{ وبعد أن أورد آثارا تدل على ما ذهب إليه قال: وزعمت المشبهة والمجبرة أن الزيادة النظر إلى وجه الله تعالى[4]، ويقصد بهم أهل السنة، فنلاحظ أن استدلال الزمخشري هاهنا بتفسير الآية لا يعول عليه لسببين:

الأول: أن ليس في هذا النص المفسر ما يدل قطعا أن الزيادة الواردة في هذه الآية هي الفضل.

---

1 قال الزمخشري: (الَّذِينَ ءامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ) أي لم يخلطوا إيمانهم بمعصية تفسقهم، وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ اللبس .الكشاف 2 / 41 ومذهب المعتزلة أن العاصي غير آمن من الخلود في النار .

2 فتح القدير 2 / 190

3 . انظر : الجمع بين الصحيحين للحميدي 3 / 395 رقم : 3084

4 . الكشاف 2 / 326

الثاني: أن حمل آية الرؤية على هذه الآية معارض بما ثبت في نصوص أخرى صحيحة.

ومن هذا القبيل أيضا رد الشيخ الشنقيطي في تفسيره " أضواء البيان " على من قال إن المراد من قوله تعالى (سَبْعاً مِّنَ ٱلْمَثَانِي){الحجر87} هي السبع الطوال، فقد قال بعد أن أورد حديث سعيد بن المعلى وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال عن الفاتحة: هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته " قال الشنقيطي: فهذا نص صحيح من النَّبي صلى الله عليه وسلم أن المراد بالسبع المثاني والقرآن العظيم: فاتحة الكتاب، وبه تعلم أن قول من قال إنها السبع الطوال غير صحيح، إذ لا كلام لأحد معه صلى الله عليه وسلم[1].

1 . أضواء البيان 3 / 236

خاتمة:

وبعد هذه الدراسة الموجزة عن " أصل تفسير القرآن بالقرآن " تتبدى لنا نتائج مهمة يمكن أن نبني عليها لنساهم في إقامة علم " أصول التفسير " لعل من أهم هذه النتائج هي الحاجة الكبيرة إلى ضرورة تبني هذا المنهج في تفسير كتاب الله تعالى، وذلك لأهميته ومكانته، ومقدرته على إيضاح المقصود وبيان المراد، تلك المكانة التي عبر عنها كثير من العلماء سلفا وخلفا، سواء كان ذلك بأقوالهم، أو بصنيعهم في مصنفاتهم التي تناولوا فيها كتاب الله تعالى بالتفسير والبيان، كما أن هذه الدراسة أكدت لنا طبيعة هذا المنهج في اتساعه وتناوله لمفهوم البيان الذي هو الغاية من " علم التفسير "، وهذا يدعونا إلى النظر في مصادر التفسير بشكل أعمق وأدق، لنلحظ العلائق بين النصوص القرآنية ودورها في كشف المعنى، كما نستنتج من هذه الدراسة أن مناهج التعاطي مع تفسير القرآن بالقرآن لها تمظهرات متعددة، لا تخرج في مجملها عن بيان اللفظ، أو الحكم، أو الموضوع، أو المقصود، ومع هذه الأهمية والمكانة والاتساع فقد بدا لنا أن هذا التفسير لا يمكن عده تفسيرا قطعيا يجب الأخذ به جزما إلا إذا كان القائم بهذا التفسير هو النبي عليه الصلاة والسلام، أو وقع عليه الإجماع، أو صدر عن أحد من الصحابة الكرام ولم يعلم له مخالف، أما ما عدا ذلك فهو تفسير بالرأي والاجتهاد قابل للصواب والخطأ، وفي الوقت ذاته تبين لنا أن هذا المنهج ليس بالأمر الهين، ولا بالطريق السهل، فلا بد لمتعاطيه من توافر الأدوات الضرورية واللازمة، مع مراعاة فقه الجمع بين النصوص، سواء كانت قرآنية أو نبوية، لنصل إلى الفهم السليم، والمعنى الصحيح في كتاب الله تعالى، وإن كانت هنالك من توصيات فإني أرى أن هذا المنهج لا يزال بحاجة إلى

. مزيد دراسات وأبحاث نظرية تقعيدية تكون هادية لطالب التفسير.

. تتبع مناهج العلماء . وخصوصا السلف . في مقاربة هذا المنهج من أجل الاستعانة به.

. كشف الدراسات التي تناولت هذا الموضوع ولم تلتزم بضوابطه حتى لا يقع الخلط بين العناوين والمضامين، وبالله التوفيق أولا وآخرا، والحمد لله رب العالمين .

لائحة المصادر والمراجع:

1. الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين السيوطي، قدمه وعلق عليه: محمد شريف سكر، دار إحياء العلوم، بيروت الطبعة الأولى 1407 / 1987.
2. أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي المعافري الأندلسي، راجع أصوله وخرج أحاديثه وعلَّق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الثالثة 2003/1424.
3. إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، 1419 هـ 1999 .
4. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، إشراف الدكتور بكر أبو زيد، دار عا لم الغد للنشر والتوزيع .
5. البحر المحيط في أصول الفقه، محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي تحقيق : الدكتور محمد محمد تامر ،دار الكتب العلمية، بيروت، تاريخ الطبع 1421/ 2000
6. البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود، علي محمد معوض دار الكتب العمية بيروت، الطبعة الأولى، 1422/ 2001.
7. البرهان في علوم القرآن لبدر الدين محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، الطبعة الأولى، 1957/1376 .
8. التبيان في أقسام القرآن لابن قيم الجوزية، دار الفكر
9. التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس 1997
10. تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، 1420/ 1999.
11. التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، مكتبة وهبة، الطبعة 7 تاريخ الطبع 2000
12. تفسير السراج المنير محمد بن أحمد شمس الدين الشربيني، دار الكتب العلمية، بيروت.
13. التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي الكلبي الغرناطي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى / 1415 / 1995.
14. تيسير الكريم الرحمان لتفسير كلام المنان للشيخ عبد الرحمان بن ناصر السعدي، تحقيق : عبد الرحمان بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 200/1420
15. جامع البيان في تأويل القرآن محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى 1420/ 2000 .

16. الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق : إبراهيم البردوني وإبراهيم أطفيش .دار الكتب العربية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1384/ 1964. .
17. الجمع بين الصحيحين، محمد بن فتوح الحميدي تحقيق: الدكتور علي حسن البواب، دار النشر دار ابن حزم بيروت، الطبعة الثانية، 1423/ 2002 م
18. دراسات في علوم القرآن الكريم للدكتور فهد الرومي الط بعة الثامنة عشر، 1433/ 2012
19. روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، محمود الألوسي أبو الفضل دار إحياء التراث العربي – بيروت
20. زاد المسير في علم التفسير، عبد الرحمان بن علي بن محمد الجوزي، المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الثالثة، 1404
21. سنن الترمذي محمد بن عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر وآخرون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
22. صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري تحقيق : محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة الطبعة الأولى، 1422 .
23. صحيح ابن حبان، بترتيب ابن بلبان، محمد بن حاتم البستي، تحقيق: شعيب الأرناءوط، الطبعة مؤسسة الرسالة، بيروت الثانية، 1414/ 1993
24. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراسة من علم التفسير، محمد بن علي الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمان عميرة، دار الوفاء .
25. قواعد التفسير جمعا ودراسة، خالد بن عثمان السبت، دار ابن عفان
26. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري تحقيق : عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .
27. مباحث في التفسير الموضوعي للدكتور مصطفى مسلم دار القلم دمشق، الدار الشامية، بيروت الطبعة الثانية، 1421/ 2000.
28. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي، تحقيق " عبد السلام عبد الشافي دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1413/ 1993.
29. معالم التنزيل أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر، عثمان جمعة، سليمان مسلم الحريش . دار طيبة للنشر والتوزيع 1417/ 1997

30. 30 معجم مقاييس اللغة لابن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر تاريخ الطبع 1399/ 1976.
31. المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة لبنان .
32. مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى، 2000/1421
33. مقالات في علوم القرآن، للدكتور مساعد بن سليمان الطيار، دار المحدث للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة الأولى، 1425.
34. مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية الحراني، شرح مساعد بن سليمان الطيار، دار ابن الجوزي الطبعة الأولى، 1427
35. المستصفى في علم الأصول محمد بن محمد الغزالي، أبو حامد دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1413 .
36. مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني الطبعة الثالثة عيسى الباب الحلبي وشركائه .
37. الموافقات في أصول الشريعة إبراهيم بن موسى الشاطبي تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، الطبعة الأولى 1417هـ/ 1997م
38. الناسخ والمنسوخ علي بن أحمد بن حزم تحقيق: عبد الغفار سليمان البنداري، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى 1406
39. النص القرآني من تهافت القراءة إلى أفق التدبر مدخل غلى نقد القراءات وتأصيل علم التدبر القرآني تأليف: قطب الريسوني، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية الطبعة الأولى 1431/ 2010م
40. النكت والعيون، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، تحقيق :السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان .